النموذج التوحيدي للمعرفة وقضايا التأويل

د. أحمد عبادي
الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء ـ المملكة المغربية

أولا – من خصائص كتاب مرحلة الختم

من خصائص كتاب مرحلة الختم، أنه كاشف للحياة وللأحياء، وللحقائق التي يكون الإنسان مستعدا لكي يكتشفها. وهذا التكشف الذي يتكشف به القرآن المجيد عبر الزمن، وبحسب استعدادات الناس، وإن كان هناك من الناس في كل عصر من يفتح الله لهم أبواب بعض الاستبانات فيظهر لهم ما يظهر قد يصرّفونه وقد يطوونه، وربما يجزّئون ما يظهر لهم جزءا جزءا لكي يمرروه بحسب ذوقهم وبحسب استعدادهم، وهو قول الله ﷻ: ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَٰذَا اَلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اِ۬للَّهِ وَتِلْكَ اَلْاَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، ﴿وَلَوَ اَنَّ قُرْءَاناً سُيِّرَتْ بِهِ اِلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ اِلْاَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ اِلْمَوْتَىٰ﴾[2]، هذه القوة المكتنزة في القرآن المجيد، هي القوة التي يحتاج إليها عالَم مثل عالَمنا اليوم في هذا الزمان، أكثر من أي زمان مضى.



1. سورة الحشر، الآية: 21.
2. سورة الرعد، من الآية: 32.

فالقرآن الكريم فيه هذه القابلية لأن يفسر الحياة والأحياء للناس، وأن يظهر لهم هذه السنن وهذه الحقائق، ولكن بحسب قوة المستمِد الذي يستمد من القرآن المجيد، وهو استمداد له آدابه وله قواعده؛ منها الآداب النفسية، والأسس العلمية، وكذلك صلاح وصفاء هذا الإقبال، ففي مجال التعاطي مع هذا الكون الذي يحتوشنا، نجد أن الإنسان يُجري حواراً مع هذا الكون من خلال طرح الأسئلة عليه، وتلقّي الأجوبة منه، وتحويل هذه الأجوبة إلى أسئلة مرة أخرى، وهي أسئلة تُطرح على الكون في المختبرات، وفي صوامع البحث العلمي.

> من خصائص كتاب مرحلة الختم، أنه كاشف للحياة وللأحياء، وللحقائق التي يكون الإنسان مستعدا لكي يكتشفها.

وهذا الحوار هو الذي يُخرج لنا كل هذه الأمور التي ننتفع بها اليوم، ولكنه حوار يقوم على الإيمان بشيء جازم، وهو أن هذا الكون قد بني وفق نسق، وأن فيه قوانين تحكمه، وأنه ليس فوضى، فأول اكتشاف قد حرر طاقة الإنسان الإبداعية، ومكنه من القراءة المثمرة في الكون، والحوار المثمر معه، هو إيمانه بأن هذا الكون نسق، وأنه مبني على علل، وأنه ليس فوضى، وأنه منظم، وأن وراءه مقاصد، ووراءه حكماً يسميها البعض حكمة الطبيعة، ويسميها أهل الإيمان بحكمة الله ﷻ الذي قد أودع هذه المقاصد، وأودع هذه الحكم في خلقه الذي هو الكون، وكلما استحرّ الحوار بين الإنسان والكون إلا وأعطى هذا الكونُ خيراتِه للإنسان، وخيراته عطاء غير محظور لقوله ﷻ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[3]، فالكون لا يفرق بين مؤمن ولا كافر، ويعطي لمن يحاوره، وعنده هذه القدرة على العطاء إلى حين ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[4]، لأن هذا الحين سوف ينسخ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ

3. سورة الإسراء، الآية: 20.
4. سورة البقرة، من الآية: 35.
5. سورة الإنشقاق، الآيات:3ـ 4ـ 5.



لَهَا﴾[6]، والوحي المقصود في هذه الآية الكريمة، وحي جديد بعدم التسخر، ولذلك يقول الإنسان ما لها؟ لماذا لا تعمل هذه السنن؟ والجواب هو، أن هذا وحي جديد نسخ الوحي القديم بالتسخر.

فإذن حوار الإنسان مع الكون بهذا الحرص، مع استبطان أن هذا الكون نسق منظم، هو الذي يمكّن الإنسان من أن يُجريَ هذا الحوار في احترام للأبجد الكوني، واللغة التي يفهمها الكون، بحيث يصوغ أسئلته بها، وإلا فإن الكون يرفض إجراء الحوار، ومن ثم يتأبّى على التسخّر، ولذلك نجد أن هذه العلوم التي أثمرتها هذه القراءة في الكتاب المنظور ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[7] هي التي أعطت **علوم التسخير** من إلكترونيك، ومن سبيرنطيقا، وطب، ومن علوم المجرة إلى علوم الذرة.

كذا الأمر بالنسبة للقراءة في الكتاب المسطور ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[8]. وهي القراءة التي نجد الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت 204 هـ) كان كَلِفًا بها حين كان مهتما مغتما باكتشاف دليل القياس؛ حيث قرأ القرآن وختمه مرات، يقوم به الليل، ويتبتل به إلى الله ﷻ، سائلا إياه جل وعلا أن يفتح له بدليل القياس، فما كان يتبين له، ويعاود الكَرَّة، يتحاور، وينظر في القرآن إلى أن ظهر له أن الدليل الذي يصلح أن يُستدلّ به على القياس هو قول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[9]، وكذا الأمر بالنسبة لدليل الإجماع، وعدد من الأصول التي ضمنها في كتابه التأصيلي الرائد لعلم أصول الفقه «الرسالة». وهو ما أثر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي (ت 179 هـ) في مواضع متعددة، وهو حال الإمام ابن جرير الطبري (ت 310هـ) في التفسير، وغير هؤلاء من الأئمة كلٌّ في مجاله، وكل في بابه.. حوار مستمر مع القرآن المجيد، وهذه

6. سورة الزلزلة، الآيات: 1ـ5.

7. سورة العلق، الآيتان: 1ـ2.

8. سورة العلق، الآيات: 3ـ 4ـ 5.

9. سورة الحشر، من الآية: 2.



هي **علوم التيسير**، أخذا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[10].

وحين كف الحوار في واقعنا الحضاري مع الكون للأسف، رأينا أننا أصبحنا نستهلك المنتجات التي ينتجها غيرنا؛ لأن علوم التسخير وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، رهينة بالقراءة في الكتاب المنظور، وأصبحنا عالة على ما كان عندنا قبلا، قبل أن نحتك بهذه الحضارة التي استمرت في حمل المشعل الذي استلمته غلابا من عندنا، واستمرت في هذه القراءة وفي هذا الحوار، توظيفا للكشوفات التي حصلت قبلا بناء عليها وإضافة إليها. فحين كف الحوار مع الكون في عالمنا، وفي فضائنا الحضاري، أصبحنا عالة على ما كان. فحين تغيب علامات الاستفهام، يغيب المنهج، لأن الذي يشي بالمنهج ويكشف عن وجوده هو التساؤل، وهو ما يبرز في قوله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[11] وتستمر التساؤلات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[12] حيث تختم الحياة بيوم الفصل، يوم القيامة، مما يعني أن التساؤل وجب أن يكون مرافقا للإنسان إلى أن تنقضي حياته، نصوصنا اليوم فيها عقم من حيث علامات الاستفهام، وهو مؤشر على الحالة التي يوجد عليها الحوار مع الكتابين في عالمنا اليوم.

ثانيا. ضرورة العلم بطبيعة القرءان المجيد

القرآن المجيد هو النص المؤسس الذي انبثقت واندهقت من بين ثناياه الحضارة الإسلامية، وهي حضارة قد غيرت صفحة الكون؛ حيث أضحت حضارة، وثقافة، ومنهجَ حياة مستمدا من هذا الكتاب الكريم، الذي جاء بمعايير جديدة، وأحدث نقلات منهجية بعيدة الغور في كينونة الإنسان، وواقع هذا الإنسان.

كما أن المعرفة قبل نزول القرآن المجيد، كانت أمرا تولده العقول في نظر الناس، لكن مع القرآن المجيد أصبحت هذه العقول تعقل ما تستكشفه من خلال النظر إلى

10. سورة القمر، الآية: 17.

11. سورة النبأ، الآيات: 1ـ2ـ3.

12. سورة النبأ، الآية: 17.



البصائر ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[13]، وإلى الآيات الموجودة في الآفاق وفي الأنفس ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[14]. وهذا المنهج الذي لربانيته يبدو متفهَّما ومُدرَكا من قبل الإنسان، كان له أثره العميق في إحداث مجموعة من القطائع مع المناهج المعرفية التي كانت سائدة قبل نزول القرآن الكريم.

حين تغيب علامات الاستفهام، يغيب المنهج، لأن الذي يشي بالمنهج ويكشف عن وجوده هو التساؤل.

فنحن نعلم أن القرآن الكريم كتاب الله المتعبد بتلاوته المعجز بلفظه الذي يبدأ بقوله تعالى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[15] وينتهي بقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[16]، وهو الذي أنزل على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[17]، والتعريفات كلها تتمحور حول هذه المحاور، وهي تعريفات بفضل الله ـ وعلى سنة التعريف في الحضارة الإسلامية ـ جامعة مانعة ميسّرة.

وأول الدرر التي يركز علماؤنا عليها بهذا الصدد، هي أن القرآن المجيد بما أنه قول الله الذي خَلق كل شيء، فإنه قول لهذا الإنسان الذي خُلق بحسب استعداده، وبحسب متطلباته ومتطلبات واقعه، وإذا كان الأمر كذلك من لدن الذي يعلم من خَلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[18]، فإن هذا القول يكون كأكمل ما يمكن الطموح إليه، وهو أمر قد قرره الإمام الغرناطي الأصل ابن عطية : في مقدمة تفسيره

13. سورة الجاثية، الآية: 19.
14. سورة فصلت، الآية: 52.
15. سورة الفاتحة، الآية: 1.
16. سورة الناس، الآية: 6.
17. سورة الشعراء، الآية: 193 والآية: 194.
18. سورة الملك، الآية: 15.

الرائعة «**المحرر الوجيز**»[19]، فكتاب الله ﷻ يتنزل بحسب تطلب هذا المخلوق وواقعه وخصائص كل ذلك، هذه قضية أولى.

القضية الثانية، أن القرآن المجيد قد جاء من لدن من أحاط بكل شيء علما، وإذا كان هذا القول قد قيل أزلا من لدن من قد أحاط بكل شيء علما، فإنه لا يمكن أيضا إلا أن يكون على وجه الكمال، وفي الناعوس الأعلى

(والناعوس من الموج هو أعلاه)[20] كما يقول ابن الطيب الشرقاوي :.

وهذا ما تدل عليه بوضوح آيات كثيرة من كتاب الله تعالى منها قول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[21].

القرآن المجيد هو النص المؤسس الذي انبثقت واندهقت من بين ثناياه الحضارة الإسلامية.

القضية الثالثة: ثم يمكن أن ننطلق من هذا المستوى الاستعدادي إلى مستوى آخر، وهو الآتي: إذا كان هذا القول وهذا القصص أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[22]، وقال الله عز وجل: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[23]، كيف إذا كان هذا القول مضمّخا بالرحمة وبالودّ، كيف لا وهو تنزيل الودود اللطيف الرحيم الذي يريد بالناس المنزل إليهم هذا القرآن اليسر، ولا يريد بهم العسر. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[24].

19. انظر مقدمة «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1422 هـ
20. في الحديث: إن كلماته بلغت ناعوس البحر، قال ابن الأثير: قال أبو موسى كذا وقع في صحيح مسلم وفي سائر الروايات قاموس البحر، وهو وسطه ولجته، مادة: نعر، «لسان العرب» لابن منظور، دار صادر ببيروت، طبعة جديدة محققة، (298/ 14).
21. سورة يوسف، من الآية: 3.
22. سورة الزمر، من الآية: 22.
23. سورة الزمر، من الآية: 52.
24. سورة البقرة، من الآية: 184.

القضية الرابعة: ثم كيف إذا أضفنا إلى هذه الأبعاد كلها، أن هذا القرآن شفاء ورحمة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾[25]، وكيف بعد هذا كله إذا أضيف إلى هذه وتلك، أن هذا القرآن المجيد مكنون؛ إذ كان ولايزال وسيبقى مستودع حقائق الحقائق في هذا الكون، منذ بدايته وإلى نهايته، وكان مستوعبا لكل ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون، وما لم يكن، ولو كان كيف كان سيكون من تجارب بني آدم؟ لاشك أن هذا القول فعلا قول ثقيل لا يعتريه خفيف[26]، وهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[27].

فإذا تأكد عندنا أن هذا القول ليس بالقول العادي، ولا كقول أي قائل، وإنما هو قول خالق القائلين كلهم من أول الدنيا إلى أن تنصرم، وبعد ذلك نظرنا إليه باعتباره فرقانا ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان: 1)، أي يعطي الإنسان الفيصل بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل، وبين الحسن والقبح، وبين الصلاح والفساد، وبين الشدة واللطف، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن أن نرسم أوساطها بجلاء من خلال الاستمداد من القرآن الكريم. فإنه سوف يتجلى لنا بما لا يذر شكا أن هذا القرآن المجيد بالإضافة إلى فضله العظيم، كتاب في قمة الوظيفية، وفي غاية النفع للإنسان فردا واجتماعا.

والقضية الخامسة التي نريد أن نختم بها الحديث عن طبيعة هذا القرآن المجيد، قضية تنتمي إلى باب عزيز على كثير من علمائنا، ولاسيما الشغوفين منهم بفنون القول، حيث إن النظر في هذا القرآن المجيد من الزاوية البلاغية، نظر فيه شجون.

ولا شك أن الذي يقرأ القرآن المجيد من مدخل الجرْس أو من مدخل الفواصل، أو من مدخل الاختصار، أو من مدخل الالتفات، أو من أي مبحث بلاغي أو بديعي أراد أن يدخل منه، سوف يقضي العجب كيف أن الحرف يُرتّب، والكلمة تُرتّب، والجملة ترتّب، والمعنى يرتّب، والسورة تُرتّب، في نسقية معجزة، تُزري بجمالية الماس

25. سورة الإسراء، من الآية: 82.

26. كان مالك : يقول: من سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها.

27. سورة المزمل، الآية: 4.

الأصفى؛ لأن الأنوار التي تبثها هذه المفردات بحروفها، وبفواصلها لا يمكن أن يحيط بها وصف واصف أبدا.

فإرادة الإنسان، وقدرة الإنسان، حين تقترن بالطين، وتريد نحته، وتريد أن تجعل منه شيئا يذكر، فإن أقصى ما يمكن أن تصل إليه أن تصيّر هذا الطين تمثالا، لكن حين تقترن إرادة الله ﷻ بالطين فإنها تصيّره إنسانا ينظر إليك ويقول لك، ويعارضك، ويوافقك، وينصحك، وقد يثور في وجهك إذا لم ترد أن تنتفع بهذا النصح. إنسانا مبدعا له قوله، وله توقيعه، وله إحساسه. وكذلك حين تقترن إرادة الإنسان بالكلمة والحرف تصيرهما شعرا ونثرا، بيد أن إرادة الله ﷻ حين اقترنت بالكلمة وبالحرف فإنها صيّرتهما قرآنا.

وإن المقارنة بين الإنسان والقرآن لهي دون حق القرآن المجيد، الذي قد قدَّر له قائله اللبث بين ظهراني الخلق والعباد إلى أن يأذن بغير ذلك ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[28]. أما إن نحن نظرنا من هذه الزاوية إلى الخرائط وإلى المعاني المَخمَلية التي يمكن استعراضها بالنظر إلى القرآن المجيد فإننا لن نفرغ من قريب.

إن العلم بطبيعة القرءان المجيد وبمستوياته، يمكّن من الرؤية الكلية المؤطرة لحركة الإنسان فردا واجتماعا، سواء في علاقته مع ربه، أو مع كلام ربّه، أو مع نفسه، أو مع بني جنسه، أو مع محيطه، الرؤية الممكّنة من الإبصار للآيات والاستبصار بها. والتي تقوم وتنبني على أساسها المنهجية المعرفية القرآنية، بكل أبعادها ودلالتها.

ثالثا. المعالم المؤطرة لمنهج المعرفة في الإسلام

إن أول ما أنزل من كتاب الله جل وعز هو قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[29]. وفي هذا توجيه مباشر للإنسان، أن يقرأ باسم الله، موحدا إياه، وأن لا يشرك معه أحدا، وهو يروم أن يقرأ ليعرف، لكي يشكل بنيانا معرفيا له مرامي وله غايات، تنضبط تحت قوله جل وعز: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾.

28. سورة الحجر، الآية: 9.

29. سورة العلق، الآيات: 1ـ5.

لا شك أن هذه الرحلة المعرفية التي يرحلها الإنسان فردا ويرحلها اجتماعا، رحلة ذات معالم ومراسم، رحلة ذات أبعاد متنوعة ومتكاملة، لكن هذه القافلة البشرية المعرفية التي يرفدها الفضول غير المتناهي، إذا لم يكن مع معها الحُذاء الذي يحدو رواد هذه القافلة فإن المسارات سوف تتعضى وتتشظى وتتفرق.

فالإنسان الفرد حين يدخله الفضول، فإنه يريد أن يعرف كل شيء، والسؤال الذي ينطرح ساعتئذ ماذا يعرف؟ فالمعرفة أكثر كل شيء؟ فكيف نأخذ من كل شيء أحسنه.

> العلم بطبيعة القرءان المجيد وبمستوياته، يمكّن من الرؤية الكلية المؤطرة لحركة الإنسان فردا واجتماعا.

لا شك أن هذه الأسئلة الكبرى، لا يمكن أن تكون الإجابة عنها بالدقة المطلوبة إذا لم تحدد الغايات التي ينبغي أن تؤطر هذه المعرفة، ماذا أعرف؟ لا بد أن تكون لماذا أعرف؟ لنأخذ حالة إنسان محاصر يريد أن يخرج من هذا حصاره، فأول سؤال سيفرض نفسه هو: كيف أخرج من هذا الحصار، كيف أفك هذا الحصار، ثم بعد ذلك سوف تتلو جملة من التساؤلات التي يجب أن تكون بالوظيفية القصوى، كما أطرت ذلك سورة النبأ، حيث يقول الله عز وجل: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[30] ثم تتلو بعد ذلك جملة من الأسئلة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾[31] فمنهج التساؤل وجب أن تؤطره الوظيفية وإلا ذهبت بنا الأسئلة كل مذهب.

هذا رسول الله صلى عليه وسلم تكلم عنه خالقه ومرسله رحمة للعالمين في سورة البقرة، بهذا الكلام، قال عز وجل: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[32] أي أن ثمة استفهامات كانت تقض مضجعه صلى الله عليه وسلم، فجاء عنها الجواب الشافي رحمة منه تعالى حيث قال عز من قائل: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي غاية سوف تؤطر كل أضرب سعيك التعبدي أو العادي، **فالقبلة مفهوم ينداح عبر معالم لا ينحصر في**

30. سورة النبأ، الآيات: 1ـ3.
31. سورة النبأ، الآية: 17.
32. سورة البقرة، من الآية: 144.

البعد التعبدي، وهذه القبلة هي ما جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[33] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[34].

إن الارتباط والاتصال بالوحي سوف يعيد رسم هذه **المسارات المعرفية** التي تتبعها سيدنا رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد تحقق الاتصال الأول بالوحي من خلال الآية الكريمة التي تأمر بالتزام منهج **التوحيد في المعرفة** قال عز وجل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[35] ، حيث أرست هذه الآيات المعالم المؤطرة لمنهج المعرفة الإسلامية. ولاشك أن الغوص في هذه الآيات المباركة سوف يجعلنا نفتح الأعين سواء كانت مادية أو معنوية أمام آفاق باهرة الجمال وبالغة النفع، فإذا أخذنا قوله تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ والذي هو **دعوة للقراءة باسم الله** في كتاب التكوين، سوف نكتشف أنها دعوة **لربط هذه القراءة باسم الله جل وعز**، وهذه **القراءة لن تكتمل إلا إذا عرفنا محاب الله**، وعرفنا ما الذي يريده لخلقه من خلال خلقه، أي معرفة مراده جل وعز من خلال خلقهم ودرئهم في هذا البعد من أبعاد الوجود، الذي نسميه **الحياة الدنيا**، والإنسان مطالب بأن يقرأ هذه الآيات ليستخلص منها ما ينفعه وما يقود مسيرته نحو **الغاية القصوى التي هي مرضاة الله جل وعز**. قال عز وجل: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[36] فالتعامل مع الآيات هو الاهتداء، لكن الاهتداء في كتاب الله عز وجل يرتبط به ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[37] فالإنسان لا يهتدي بنفسه، فمنذ المبتدأ يظهر لنا هذا المفهوم الاستثنائي الذي يربط بين **الآيات والمعرفة**، وهي منهجية متكاملة يمكن أن نصطلح على تسميتها **بالمنهجية الآياتية للمعرفة**؛ أي الممكنة من الاتصال بمختلف هذه الآيات لتحرر هداية وظيفية، تنتطلق من موقع القراءة نحو القبلة المرجوة.

القبلة مفهوم ينداح عبر معالم لا ينحصر في البعد التعبدي.

33. سورة الأنعام، من الآية: 52، وسورة الكهف، من الآية: 28.
34. سورة النجم، الآية: 42.
35. سورة العلق ، الآيتين: 1ـ2.
36. سورة النحل، الآية: 16.
37. سورة الفاتحة، من الآية: 6.

ومفهوم القبلة هو مفهوم وظيفي، وليس مفهوما تعبديا صرفا، فهو مفهوم وظيفي؛ لأنه هو الذي يجعل الإنسان قادرا على التماس الهداية، وإذا لم يع الإنسان القبلة لن يستطيع تحديد وجهته نحو هذه القبلة، ولن يستطيع أن يوظف وعيه بموقعه رغم أن **الوعي بالموقع أيضا له جملة من المقتضيات.**

إن القراءة في الكتاب المنظور في هذه الآيات تقتضي حضور القبلة والوعي بالقبلة، بمعنى أن التوحيد والمعرفة بالغاية قضية وظيفية وليست قضية تعبدية محضة، فالإنسان لا يوحد الله عز وجل فقط تعبديا، وإنما يوحد الله عز وجل لهذه الغاية أيضا؛ أي أن الإنسان يريد أن يعرف منتهى حراكه، لكي يستفيد من كل الإدراكات التي سوف تمليها عليه مختلف الآيات، **فالتوحيد يبرز في القرآن المجيد في المنظومة القرآنية باعتباره خيطا ناظما لحراك الإنسان التمثلي وحراكه المعرفي .**

وظيفية قصوى وإلا فالآيات بالكثرة التي نعلم، وبالتنوع الذي نرى، وبالنُّكهات التي ندركها، إذا لم يكن عند الإنسان خيط نابض فلن يستطيع على الإطلاق أن يوظف مختلف الإدراكات التي تحررها الآيات، لذلك فإن هذا الامتنان الرباني لإبراز البعد التوحيدي في المعرفة منذ أول آيات نزلت، امتنان لا نستطيع أن نعرف قيمته إلا من خلال الشكر الذي هو عمل؛ والذي هو توظيف هذا الامتنان في حِراكنا المعرفي المُستبان، قال عز وجل: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13).

رابعا- من مداخل المنظومة المعرفية التوحيدية: القراءة الوظيفية باسم الله

إن الحديث عن **القراءة باسم الله** ليس حديثا استيطيقيا؛ وإنما هو حديث في غاية الوظيفية ومنتهاها، وهنا **قوة اقتراحية كبرى لهذا الدين** الذي هو دين الختم، فمفهوم **القبلة،** ومفهوم **تحديد الوجهة** نحو القبلة، ومفهوم **الاستفادة من الوعي بالقبلة،** والقدرة على **تحديد الوجهة للسعي الراشد والرشيد** نحو هذه القبلة التي إليها المنتهى ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، كل ذلك لا شك سوف يلمّ أشتات عملية القراءة، ويجعلها نافعة للفرد وللجماعة في إطار ما نص عليه كتاب الله عز وجل **الأسرة الممتدة البشرية، وإطار المحافظة على أمانة هذا الكوكب** - ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؛ أي أننا علينا واجب المحافظة على هذه الأمانة، وهذا النهي لم تقترن به قرينة تصرفه من الحِرمة



إلى الكراهة، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، **مما** يبقي الحرمة هي الأَوْلى؛ يعني هي الأكثر حضورا، فهذا الوعي إذن **بوجوب القراءة باسم الله تعالى**، والذي كان منذ المبتدى؛ هو الذي **أطّر الكسب المعرفي، لكن هذا التأطير اندرست كثير من معالمه.**

من خلال **القراءة للكتاب المنظور** نخلص إلى أن **القراءة باسم الله تزودنا بوعي القبلة**، وتمكننا من تحديد وجاهتنا، كل من موقعه نحو هذه القبلة، وتفرض علينا **التنسيق بين هذه الوجهات جميعها لكي تنظفر، وتتكامل وتحرر فاعلية ونجاعة في الأداء المشترك**، في انديااح نحو أداء الأسرة الممتدة جميعها، وهو أفق لم تصله البشرية بعد، والأطر التي تمكن من بلوغ هذا الأفق الذي تصبح البشرية فيه تؤدي أداء مشتركا.

وهنا يبرز الحديث عن مستوى آخر، **وهو الكتاب المسطور**، انطلاقا من قوله عز وجل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 3-1)، فالقراءة فيه وجب أيضا أن تكون باسم الله، فالكتاب المسطور **تبيان لكل شيء، وما فُرِّط فيه من شيء، وهو كتاب يهدي للتي هي أقوم، وهو آيات؛** وهذه الآيات تنزلت عبر عملية ربانية على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: 194)، تنزلت على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين، لكي يبيّن ويحرر القدرة على الهداية للتي هي أقوم الكامنة في هذا الكتاب المبين، قال عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٨٠﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٨١﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: 77 ـ 79).

ما هو التساؤل الذي ينقدح من عملية التمثل الأولى؟ إذا أخذا أنموذجا على ذلك قوله جل وعز: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: 103)، هذه الآية نزل بها جبريل عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت في بيت العزة، لأن رب العزة قد تكلم بهذا الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم أزلا.



إذن هذا التمثل عينه يقدح **قدرة تبيانية وهداية للتي هي أقوم في حد ذاته**؛ لأن السياق الذي تنزلت فيه هذه الآيات كما يذكره العلماء سياق تنازع بين الأوس والخزرج، واستجابة لما جاء يُحي فيهم وفيما بينهم، نعرات النزاعات فهذه الآيات عبارة عن بلسم لهذا الخلاف، وهذا الصراع الذي كان سيدر بقرنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم، حيث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «أو أنا بين ظهرانيكم أو أنا بين ظهرانيكم» فنزل قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا).

بمعنى أن هناك أخذا بالكتاب المسطور شفاء لما في الصدور ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾ (الإسراء: 82)، في اتساق لهذا السياق واستجابة لمقتضياته، وفي توظيف لهذا الشفاء الكامل في الكتاب المسطور لهذا الداء الذي يدر بقرنه، ودرء لهذه الفتنة التي بدأت تتطور بين ظهراني المسلمين.

> مفهوم القبلة هو مفهوم وظيفي، وليس مفهوما تعبديا صرفا.

هذا التنزل لهذه الآيات بهذا المنهج يعلمنا **كيف نستنطق في ما يستقبل الكتاب المسطور**، لأن تنزُّل القرآن المجيد بهذا المنهج الذي سماه العلماء **تنجيما**، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم باللفظ النبوي الشريف في سورة الواقعة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: 75] فالكون في مقابل القرآن، الكتاب المنظور في مقابل الكتاب المسطور، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٨ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٩ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٨٠ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٨١ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 77ـ79] إذن هذا المنهج يعلمنا **كيف نستنطق الكتاب المسطور لاستخلاص الهداية للتي هي أقوم بما يتوافق مع مقتضيات وضغوطات وإملاءات السياق**، والإشكالات التي تثور في هذا السياق، بمعنى أننا نتحدث عن **معرفة وظيفية باسم الله**، ولا نتحدث عن **المعرفة في نوع من الانزياح في امتداد غير معلوم المنتهى**.

إن القراءة باسم الله في الكتاب المسطور تحتاج إلى يقظة، وإلى تحديد القبلة، لكي تحكم القبلة الوجهة التي ستربط موقع الإنسان بهذه القبلة، سجودا واقترابا ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: 19] أي أن الإنسان يتوسل بقدرته الاستفهامية (عم

يتساءلون) مرة أخرى، **يبرز العالم وفق هذا الرصد كائنا متسائلا يقظا يعي واقعه، يعي سياقه، يعي مقتضيات وحاجيات سياقه ويستنبط،** «ذلكم القرآن فاستنطقوه، ذلكم القرآن فثوروه» أي أنك تطرح بين يدي ربك متسائلا: إي ربي ما العمل بخصوص هذا الإشكال؟ إي ربي ما الحلول للحرارة الشديدة، ما الحلول للتعامل الراشد مع كوكبنا فنحن نفسده ونلوثه ونظهر الفاسد في بره وبحره، وبما كسبت أيدي الناس؟ إي ربي ما الحلول لهذا الفهم الذي بدأ الآن يبرز للدين باعتباره شيئا تكميليا؟ إي ربي ما الحلول لهذا الأداء المتشاكس المتنازع للبشرية ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53]، وهنا يبرز **سؤال الكيف**؛ انطلاقا من خصائص الإنسان المستنطق لآيات الذكر الحكيم.

> التوحيد يبرز في القرآن المجيد في المنظومة القرآنية باعتباره خيطا ناظما لحراك الإنسان التمثلي وحراكه المعرفي.

إن حديثنا عن المنهج التوحيدي للمعرفة في هذا الطرز الأول من بسط بعض معالمه ومراسمه يفيد أن الأمر يبدأ بمعرفة القبلة، وهذا هو الذي يمكن من تحديد الوجهة انطلاقا من القبلة نحو هذه الوجهة، **هذه العلوم علوم القبلة، وعلوم الوجهة، وعلوم تحديد الموقع، علوم لا شك موجودة بوفرة في كتاب الله تعالى.**

إذا سأل الإنسان الوحي الخاتم هذا السؤال سوف يجيب، ويخبره بأنه **خليفة** ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] ويبين له مؤهلاته التي لن ندخل في تفاصيلها، فهي موجودة مبسوطة في كتب العلماء، لكن ذرونا نضع العنوان الآتي على هذه المعرفة وهو: **التصور القرآني للإنسان فردا واجتماعا، والفرد عضو من أسرة ممتدة اسمها «البشرية»** أمرت أن تتقي الله عز وجل في أرحامها، وهو قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

إن موقع الإنسان هو قطرة ماء مباركة في محيط هذه الأسرة الممتدة التي ندعوها «البشرية» في مختلف الأجيال، هذا التماهي الذي يصل إلى منتهاه في مثل قوله تعالى في



سورة الأنفال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63]، والحديث عن **الصف**، والحديث عن **البنيان المرصوص**، والحديث عن **الأخوة**، وعن **وحدة الأمة** وعن **النفس الواحدة وإلزام التعارف** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

إن كل الصروح التي رفعها رسول الله صلى الله عليه وسلم رفعت بـ «القراءة باسم الله» سواء في البعد المعنوي أو في البعد المادي، ووجدنا أنه صلى الله عليه وسلم في حراكه القرائي كان همه الأول هو الاستجابة لمراد الله سبحانه، من رفع لمعالم المسجد بدأ بقباء وانتهاء لموقع الحالي للمسجد، لاطمئنانه على هـؤلاء القراء الآخرين الذين سوف يقرؤن ويعلمون الأسرة الممتدة من خلال أخذهم من سيدنا رسول الله صلى الله عليه الذي يقرأ باسم الله تعالى في البعدين، وهكذا سوف تجدون أنه كان في كل حالاته قارئا بسم في كل لحظة، والمعرفة التي كانت تتجمع والتي سميناها بالفقه، أو بالتفسير أو بالحديث أو بأضرب الضبط الاعتقادي، وكل ما ارتفاع من صروح، إنما هو نتاج هذه القراءة بسم الله. بمعنى أن هذا **النسغ التوحيدي** يسري في كل هذه الصروح سريان الماء في العود الأخضر، لا ينفك الابستيم أو النموذج التوحيدي للمعرفة عن أي فعل قرائي من كل هذه الأفعال القرائية التي قام بها عليه الصلاة والسلام.

من هنا فقراءتنا لأي موضوع من المواضيع الحارقة يمكن أن يكون بهذه الكيفية العملية، لولا هذا السريان لهذا النسغ ـ النموذج التوحيدي للمعرفة ـ الذي هو بكل بساطة القراءة بسم الله لكان اضطرابنا الآن في هذه اللحظة كاضطراب الابستمولوجيين وفلاسفة المعرفة، نرى أمور في غاية الاستغراق، لأن ليس هناك نسغ يسري يمكن أن تتبع هذه التطورات والتجوهرات التي له في مختلف هذه الصروح المعرفية، بيد أن الأمر في هذا المجال الإسلامي بهذا النسغ الذي نتحدث به الآن.

لقد اضطر فلاسفة المعرفة حل هذا الإشكال عبر **بلورة رؤى معينة، وغايات معينة تقود عملية التعاطي مع المفردات والآيات التي تستخلص من المعرفة**، والتي لها إملاءاتها

المختلفة. وهنا يظهر **مثل برادايغم المختارية، وبردايغم السيادة، وبراديغم النفعي، وكلها براديغمات لها سريانها في الصروح المعرفية التي تم إنتاجها من خلال القراءة باسم السيادة أو باسم النفعية، أو غير ذلك من البرديغمات التي أطرت السعي المعرفي.**

إذا قرأنا في الكسب المعرفي الذي تم في إطار الحضارة الإسلامية سوف نجد أن (الإبستيم) أو البرديغايم، كيّف بقايا أثر سؤر الأيام من القدح الذي كان ملئ بهذه المعاني، حينما يقرأ ابن النفيس الدورة الدموية، أو ابن الهيثم الألوان أو الإبصار، أو ابن زهر أو غيرهم، في كتاب الله تعالى المنظور في هذه الآيات، فإنهم من خلال النفع لعيال الله تعالى. وهنا يظهر البعد التوحيدي الوظيفي في هذه القراءة، من خلال التوحيد؛ إذ التوحيد يقود لمثل هذا الكسب القرائي، مما رفع صرح نوع من المعرفة استثنائية؛ لأنه تم ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ في **الكتاب المنظور**، وبـ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ في **الكتاب المسطور**.

إن الحديث بهذا اليُسر ينم بأن هذا النموذج التوحيدي يسري في كل هذا الكسب القرائي الذي قام به المسلمون، انطلاقا من التزام هذا الأمر، لكن لم نبق ولم نلبث في مأمن عن كافة أضرب الاختراقات.

خامسا. المصافي المؤطرة لعملية القراءة داخل النموذج التوحيدي للمعرفة

بالإضافة إلى أن القراءة هي عملية تحتاج إلى بناء، فإن عملية القراءة تمرّ **من جملة من المصافي**، في مقدمتها المصفاة العقلية، والمصفاة الجثمانية، والمصفاة الوجدانية، والمصفاة الاجتماعية، والمصفاة المحلية، والمصفاة العالمية، التي تتصّل بتدبير شؤون الأسرة الممتدة، وهذه الأمور وجب أن تُبنى بناء.

وهنا يظهر بجلاء وظيفية بناء المهارات التي ينبغي أن ترافق **تنشئة القارئين «باسم الله»**، وهي مهارات وجب أن تستحضر الأبعاد العقلية، والوجدانية، والجثمانية، والفردية، والجماعية، والمحلية، والدولية. ولا شك أن البناء هذا يقتضي العكوف على وضع استراتيجيات لذلك، ولا سيما في هذا العالم المخترق بكلّ هذه السيول المعرفية التي تفيض علينا من خلال الهواتف المحمولة الذكية، ومن خلال كل وسائل نقل المعارف.

إن من معاني **التيسير** ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]، هذه **المواءمة هي التي تمكن الإنسان من استبانة معالم أنوار هذا الكتاب** الذي قال عنه منزله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٧ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16-15]، إذن فعندنا مؤاءمة هي التيسير، وعندنا مواءمة أخرى في الكتاب المنظور في البعد التكويني؛ أي الكون ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13] ولو لم تكن هذه المواءمة لما استطاع الإنسان أن يقرأ هذا الكتاب المنظور ولا الكتاب المسطور.

> إن القراءة باسم الله في الكتاب المسطور تحتاج إلى يقظة، وإلى تحديد القبلة.

لقد زوَّد الله الإنسان بالقيام بالقراءة الأولى في الكتاب المسطور بالكلمات. قال عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]، وهذا التلقي لهذه الكلمات هو تجلي هذا التيسير، وهذه المواءمة التي تمكن الإنسان من القراءة في الكتاب المسطور.

أما البعد الآخر فهو الأسماء، وهي أيضا في سورة البقرة في سياق قصة بدء الخلق، وقول الله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، وهي الأسماء تمكن الإنسان من القراءة في الكتاب المنظور من خلال تفصيل المجملات فلا تبقى الأمور مجملة لا يستطيع الإنسان تفكيكها من خلال القدرة على التسمية. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]: «علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة» لما رام من قدرة على تفصيل هذه المجملات، وإعطاء اسم ووسم من كل تفصيل من هذه التفصيلات.

إن آلية القراءة في الكتاب المسطور هي التدبر، قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: 29]. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24] وآلية القراءة في الكتاب المنظور هي التفكر ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى

﴿... خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 191-190].

إذن نحن في هذا المستوى أمام **إنسان قارئ يحتاج إلى بناء مصاف معينة**، يمكن إجمالها في أربعة، وهي:

الإنسان القارئ لكي يقرأ وفق هذا النموذج التوحيدي يجب أن تبنى عنده عدد من المصافي.

المصفاة الأولى: النصوص المؤسِّسة، ويقصد بها آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وآثار الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، عبر التتبع الدقيق لهذه النصوص، مع اعتبار العلاقة التكاملية بينها، واستحضار السيرة النبوية المطهرة، الحاملة للأنموذج الأمثل والأقوم، الـمُشَكِّل للوحدة القياسية، وكذا استحضار هَمِّ الاستخراج والاستنطاق والاستخلاص للكسب القرائي للنبي صلى الله عليه وسلم في مختلف أبعاده(38).

المصفاة الثانية: الآليات الاستنطاقية للنصوص، المُمَكِّنَة من الاستنباط والاستدلال، وما يندرج تحتها من آليات، من قبيل: أصول حديث، وأصول فقه، وأصول تزكية، وأصول الاعتقاد، وأصول تفسير.

المصفاة الثالثة: مقتضيات السياق، ولا شك أن من آكد شروط ذلك الوعي بالسياق الذي تتم فيه الحركة بهذه العلوم، حيث تَحْتَوِشُ الإنسان إفرادا واجتماعا، جملة من العناصر الذاتية، والموضوعية التي يتشكّل منها سياقه الذي يحيى ويعيش فيه، ومما يدخل تحت هذه المصفاة: حاجيات السياق ومستلزماته، ديناميات الجماعات، والأبعاد التربوية، والأبعاد السياسية، والأبعاد الاقتصادية، والأبعاد الثقافية، وغيرها.

38. فالنصوص المؤسسة تزيد عن الـ80 ألف نص محصية. عندك 6236 آية، و 40 ألف حديث، وما يزيد عن 27 ألف بقليل من أقوال الصحابة والتابعين التي ليست مرتبطة برواية الحديث، بل هي مستقلة. 27 ألف ونيف. وكل نص له أموره، وفوائده وخيره ومسائله. لأنه ليس هناك متكرر وقد تتوهم أن هذه الآية هي هذه الآية. فالآية في موقع في سورة القصص ليست هي آية في موقع في سورة الشعراء. إذ أخذت قصة موسى عليه السلام مثلا. في كل موضع إلا وله خصوصياته. وهذا ما يسميه رب العزة «تصريف الآيات» كما تصرف الرياح. فالآيات تصرف لأن الآية هي العلامة التي تهدي السائر على الصراط حتى لا تتفرق به السبل.



المصفاة الرابعة: القوالب التفكيرية والجهاز المفاهيمي، ويدخل تحتها، بناء كفايات أهل العلم، لجعلهم قادرين، بعد فهم واقعهم، بناء على ما استجمعوه من آليات فهم الدين، على اعتبار المصالح العاجلة والآجلة، واعتبار الأصل الأكبر الذي هو الإسعاد. وتحقيق الغاية الكبرى؛ والتي هي هداية الخلق إلى طريق السعادة في الدارين، والاهتداء بالتي هي أقوم.

إنه باستحضار هذه المصافي يستطيع الإنسان القارئ القراءة انطلاقا من المواءمة، ومن إعمال آلية القراءة، لكن هذا الإنسان القارئ بإزاء هذه المصافي، إذا لم تكن عنده قبلة واضحة، فإن الكسب القرائي يصعب أن يكون باسم الله.

إن الحديث في هذا المستوى عن كل أضرب القراءة سواء في كتاب الله المسطور أم في كتاب الله المنظور تستلزم الانتباه لوجوب أن تكون هذه **القبلة محررة**، اقرؤوا معي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]، ووعيا من علماء الأمة، بمختلف مذاهبهم الفقهية، بمحورية هذا المعطى، نجدهم دائما يتميزون بالتزام **أفق الربانية**، ومذاهبهم الفقهية كان لها إسهامها في حفظ الأمة إنما كان **لكونها ربانية ولكونها باسم الله، وهو تنوع تكاملي بينها جميعا**، ولذلك تجد في مذهب مالك رضي الله عنه مراعاة الخلاف أصلا من الأصول، وهو أصل عظيم تنث منه الربانية نثا؛ ولذلك الذين يقولون بالتخلي عن المذاهب لا يفقهون حقيقة المذاهب ولا أصولها التي تأسست عليها، والحديث في هذا له مجالاته على كل حال.

إن هذا البعد المتصل بالقراءة، وبلزوم كونها ربانية، هو **من أعظم تجليات هذا النموذج الذي نسميه المنهج التوحيدي في قراءة كتاب الله المسطور**.

وفي **الختام** أشير إل جملة خلاصات:

الخلاصة الأولى: هي أن الإنسان القارئ لكي يقرأ وفق هذا النموذج التوحيدي **يجب أن تبنى عنده عدد من المصافي**، وهذا من الموضوعات التي ينبغي أن يعكف عليها علم التربية وعلم التنشئة في كل مستوياته.

ولا بد أن نتحدث عن **البعد الفردي وعن البعد الجماعي**، ولا بد أن نتحدث عن **التضافر بين الأبعاد الفكرية والوجدانية والجسمانية**، حتى لا يتم الذهول عن جانب منها، لا بد أن نستحضر المصفاة المحلية والكونية أي الأسرة البشرية الممتدة، ووجب أن نكون حريصين على زرع هذا البراديايم في كل مناهج العلوم الكونية، وبالعلوم المتصلة بالكتاب المسطور زرعا في استحضار مستدام **لضرورة بناء الإنسان القارئ**، ليكون وفق نموذج نبوي في كل كسبه القرائي الذي يمكن أن نرصده من خلال **التتبع الدقيق لأحاديثه الشريفة ولسيرته النبوية المطهرة، من خلال استحضار هَمِّ استخراج واستنطاق واستخلاص تجليات هذا النموذج المعرفي في كسبه القرائي ﷺ أيضا في البعد العمراني الأنموذجي**، الذي هو **المدينة المنورة** وجب أن نتتبع تجليات هذا النموذج في الكسب القرائي العمراني الذي تم، ثم عبر الأجيال الأخرى.

> المنتهى هو تحقيق الغاية التي بيّنها رب العزة من هذه القراءة، وهي بكل وضوح الرشد.

فالقضية جد وليست بالهزل، وفصل وليست على الإطلاق ما دون ذلك، **مما يلزم بعمليات عكوف منهاجي لأصل القول وضبط القول وتدقيق القول في كل هذه الأبحاث.**

ولاشك أنها أوراش عظمى عبارة عن **مشاريع حضارية** قد تم الذهول عنها، وإلا هذه الأمة الرائدة الشاهدة **ما هي تجليات شهودها في الواقع** الذي نراه الآن ؟ كيف تزعم هذه الأمة أنها أمة الوسط، وإذا لم تحفر الماء لتنبطه وتسقي به هؤلاء العطشى ، فأية وسطية وأية ريادية إذا لم تمتح من البعد المعرفي ..

الخلاصة الثانية التي نستخلصها بهذا الصدد: هي **وجوب إرساء معالم قياسية تقويمية**؛ لأن الإنسان إذا قرأ دون أن يقيس، ودون أن يرسي الموازين لضبط نجاعة هذا النموذج القرائي وسلامته فإن القراءة أيضا لا يمكن أن تكون على المنهج الأسلم.

إن هذه الأبعاد المتصلة **بالتقويمات**، والتي تجليها **قضية المحاسبة على الصعيد الفردي، وعلى الصعيد الجماعي**؛ هي من الأمور الغائبة، غياباً جعل من المسلم أو ما كاد يكون مسلما به أن يقرأ كل كما شاء وما شاء، ويكتب ما شاء، وأن ينشر ما شاء، وينجز

ما شاء، في إطار الخصوصية الفردية، أو الخصوصية المحلية، أو ما دون أو ما فوق ذلك من الخصوصيات.

هذه إعادة بعث **لمفهوم المحاسبة والتقويم**، والتي نص عليها كتاب رب العزة، ونصت أخذا من مشكاته كتاب الله، وسنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله سلم.

الخلاصة الثالثة والأخيرة؛ هي وجوب أن نعي **بأن المنتهى هو تحقيق الغاية التي بيّنها رب العزة** من هذه القراءة، وهي بكل وضوح **الرشد** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ (الجن: 1 ـ 2).

هي ثلاثة مستويات؛ كل منها عبارة عن أوراش متعددة ومتكاملة، يصعب جدا الحديث عن تبيان معالم ومراسيم النموذج التوحيدي للمعرفة دون تجليتها، ودون إظهارها، وإبرازها.